بين الفصحى والدارجة

للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب

كان لأبناء العربية المتحمّسين لقوميتها الحديثة مطمع أن يجعلوا اللسان الفصيح هو المتداول في التواصل اليومي على وجه مشابه لما تم للمثقّفين ومقاربيهم في أوربا وامتداداتها في استعمالّ الصحيح من ألسنتهم في التداول والتواصل اليومي بالكلام . وقد كانت في البلاد العربية ، وخاصة في مصر والشام نهضة طيبة وإنتاج علمي وتعليمي وأدبي نفيس .

ثمّ جعلت ترتفع أصوات تهمس بنوع انتكاس من الدعوة إلى استعمال الحرف اللاتيني،واللسان العامي. وحاربتها الأمة العربية بسلاحين،سلاح الدعوة إلى الوحدة الجامعة بين العرب ولا يكون ذلك أبدا بلهجات العرب المختلفة النطق والمعادن والأساليب وإنما يكون باللغة الفصيحة والاقتراب كل الاقتراب من منهجها وأساليبها وبيانها نطقا وكتابة. وسلاح الدين واللغة العربية الفصيحة هي لغة الكتاب والسنة وحضارة الإسلام وعلومه.

ثم نشأ لسان مشترك بين العرب من طريق وسائل التواصل والأعلام الحديث ملفق من اللغة الفصيحة والأساليب الدارجة بين الطبقات المثقفة كرجال الدين والتعليم والصحافة والقادة الخطباء السياسيين والشعراء المنادين بالحرية المنددين بالاستعمار وبرجال الأدب والنقد والقصة والمسرح .

وصحبت نشأة اللسان الفصيح المشترك التلفيقي على النحو الذي قدمناه حركة أخذ وتعريب ونزعة شبه شعوبية من بعض طالبي التشبه بالافرنج واللحاق بهم في نوع من عجلة وتقليد أعمى .

وعادت مرة أخرى دعوة إلى العامية متمثلة في التزام المسلسلات المسرحية في سائر بلاد العربية لغة اللسان العامي ، وتخالط ذلك روح منافسة بين الألسن العامية كأنها تريد أن تضاهي سيرورة عامية القاهرة .

---

* ألقي هذا البحث في الجلسة السادسة يوم الخميس ١٣ من ذي القعدة سنة ١٤١٨هـ الموافق ١٢ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٨م.

وتوجـــد مسلسلات فصيحة اللسان إلا أن الـــتكلف في التعبير الذي ينبغي أن يصدر بروح الطبيعة والفطرة هو الغالب علـــيها . ممـــا يقوي أو يظن أنه يقوي أصـــحاب القـــول بأن اللغة الفصيحة لا تصـــلح كل الصلاحية للبيان العصري . ويـــلحق بهذا القول الشعوبي النـــزعة ما يـــنادي بـــه المنادون من أمر الشعر الحر والقصيدة النثرية .

ويدعـــو بعـــض الفضلاء المربين إلى وضع خطّة تربوية جادة تهدف إلى إحلال اللغـــة الفصـــيحة محل العامية في المدى البعـــيد، معـــتمدين عـــلى قـــول بعض النظريات العصرية بأن لتعليم اللغات فترة فطـــرية المـــنهج كفترة الرضاعة التي تبدأ بطبع الطفل وفطرته بعد مولده . فيقال إن هـــذه الفترة تنتهي بانتهاء السنة السادسة ويكون الدماغ بعدها معدًّا للتعلم فيتعلم اللغـــة كما يتعلم غيرها من المعارف وفي هذا عناء من التلقي لا يبلغ في اليسر مبلغ الفطرية .

وعندي أن اللغة الفصيحة ينبغي أن تـــدرس بأسلوب يبلغنا المقصد الأول من درســـها وهو معرفة لغة القرآن والحديث والبيان الأصيل الذي جاء به نعت القرآن من لدن حكيم حميد . وذلك أن نبدأ بخط أحـــرف الهجاء لنقرب الناشئ من معرفة صـــورها في سن مبكّرة كالرابعة مثلا ثم نـــأخذ بتعلمه القرآن بدءا بالفاتحة للتبرك ثم اصعادًا من سورة الناس إلى سائر سور المفصـــل ثم بعد ذلك تعليم اختيارات من الشعر تحفظ ويصاحبها النحو ثم نعلم بعد ذلـــك الحديـــث والفقه فإذا بلغ الناشئ السابعة كان قد احتوى صدره علمًا وافيا من آيات القرآن ومتون الشعر ونصوص الحديث .

ثم بعـــد السادســـة وذلـــك في سن السابعة يسار بالناشئ والناشئة على درب التعـــلم الحديـــث عـــلى أجود طرقه مع الاستفادة من أساليب الإعلام والتواصل الحديثة .

ومـــع هذا كله لابد من الحفاظ على أصـــالة اللغة الدارجة في كل بلد عربي لما تتضمنه من روح الجزالة والبيان الأول .

وقد فطن الأوائل إلى أن جزالة العربية قد داخلها لين الحضارة فلم يستشهدوا بجيل

يشـــار عـــلى قوة تعبيرهم وتمكنهم من جوهـــر فصـــاحة اللغـــة وختموا باب الاستشهاد بابن هرمة وبالغ أبو عمرو بن العلاء فكره الاستشهاد بابن قيس الرقيات عـــلى فضله ولم يتابعه في ذلك العلماء . وذكر ابن جني في الخصائص أن فصاحة العـــرب الأولى بقيت منها بقايا إلى زمانه إذ مـــرّ بأعراب بالبادية قال أحدهم وهو يخاطبه (يحير) فأصلحه صاحب له فقال (يحار) وعلق ابن جني على ذلك بوصف المتنبي بالصدق فيما يقول .

والخـــبر الذي ساقه ابن جني عن أبي الطيب عظيم الأهمية لدلالته على لون مما نذهب إليه من أن فصاحة البداوة الأولى لـــن تـــزال إلى يومنا هذا باقية منها بقايا وعليـــنا أن نتفطن إلى ذلك . وعلينا أن نتنـــبه إلى أن رســـائل الإعلام والتواصل الحديـــثة ربما عصفت بهذه البقية النادرة الباقـــية ومـــن أول أوجه التنبه أن نقف الحملة الجائرة عليها فلا ينبغي أن نحسب أنهـــا شيء معاد للسان الأول الفصيح بل شيء داعم له ومعين على المحافظة عليه . ولعلنا كلما ابتعدنا عنه نبتعد من حيث لا نشـــعر عـــن أصول الفصاحة والجزالة . ولعلنا إن تأملنا بعض ما بأيدينا من كتب اللغـــة والنحو أن نفطن إلى أنها قد غفلت عن أشياء مازالت تحتفظ بها اللغة الدارجة مثلا شاف يشوف . في كتب اللغة معناها جلا ويستشهد بيت عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعدما
ركد الهواجر بالمشوف المعلم

وتذكر بعد اشتقاقات وكلمات كلها يمكـــن أن نستنبط منها بيسر وبلا تكلف أن الاســـتعمال الدائر السائر في كل بلاد العربـــية الآن مـــن أن شاف معناها نظر ورأى صحيح ـ قالوا وذكر ذلك صاحب الـــتاج عن ابن الأعرابي بعث القوم شيّفة لهم أي طليعة ومن الشواهد قول قيس بن العيزارة الهذلي :

وردنا الفضاض قبلنا شيفاننا
بأرعن ينفي الطير عن كل موقع
وأن شـــيفان مشـــفعة من شاف لا يخفي وكذلك شيفة وفي القاموس اشتاف الـــرجل إذا تطـــاول ونظر والبرق شام ولعمـــري أن قولنا شام كقولنا شاف في هذا المجال .

ومثال آخر كلمات تدل على زمان كقولنا في دارجتنا دابه جا توه جا وقول أهـــل مصـــر زمانه جايي . قال تعالى في ســـورة آل عمـــران (١٩٥) " بلى إن تصـــبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مســـومين " . قـــال الطبري أصل الفور ابتداء الأمر يوجد فيه ثم يوصل بآخر وإلى نحو من هذا ذهب الزمخشري في الكشاف واستشـــهد بقول أبي حنيفة في الأمر على الفور لا على التراخي وفسر يأتوكم من فورهم هذا من ساعتهم هذه .

وفي ســـورة يوسف (٤٧) تزرعون ســـبع سنين دأبا " فسره الزمخشري بمعنى دائـــبين في العمل وحرف الزمخشري أبو عمرو وهمزته ساكنة والحرف بفتح الهمزة وســـكونها والاخـــتلاف بين البصريين والكوفـــيين في جواز فتح الساكن ليس موضـــع الـــنظر الآن إذ كلاهمـــا قراءة صـــحيحة والوجه ما ذهب إليه الطبري حـــين جعل الدأب هنا بمعنى العادة وكان صاحب هامش طبعته الحلبية ظن أنه فسر على أن الهمزة ساكنة وأحسبه لم يتنبه إلى

أن الطبري كوفي المذهب في أمر السكون والفتح والوجه الذي ذهب إليه في التفسير أقوى من وجه الزمخشري ويدخل في باب الزمنـــيات التي قدمنا والعامة يقولون دابه جا ويجي دابا أي من الآن فصاعدا وهذا باب طويل فلا نريد أن نطيل فيه .

والذي يعنينا هو ما قدمناه من أن الدارجة الأصلية فيها نفس من روح البيان الأصيل يخشـــى عليه من غزوة اعلاميات العصر ودخـــول العجمـــة من طريق العبارات الصحفية والإعلامية المترجمة فيفسد ذلك ذوق الـــناس في العربية ولله در السباعي رحمه الله في كتابه عن الأدب الجاهلي إذ ذكر أن من البيان ما يستطاع في أعماق دارجة القاهرة بين النساء اللاتي لا يكتبن ولا يقرأن . وقد فطن المأمور عبد القادر مختار رحمه الله ، الذي كان مأمورا مصريا بمدينة القطينة بالنيل الأبيض بالسودان في أوائل هذا القرن الميلادي فصنع مسرحية سماها المرشد السوداني ضمنها عجائب من بلاغة العامة طبعت بالخرطوم سنة١٩٠٨م وقـــد نبهت بعض المشرفين على جوانب أدبـــية ثقافية في بلدنا إلى مكانها وآمل أن

تعاد طباعتها ، ومؤلف آخر ضمن كتابه من فصاحة اللغة العامية وبيانها أمثلة نادرة صاحب كتاب (في شان الله) .

وقد حفظِت الأشعار الدارجة عندنا في السودان ثروة عظيمة من علوم الدين في الفقـــه والســـيرة والتصرف وضمنت مدح النبي صلى الله عليه وسلم بحت. عظـــيم ذي صدق وحرارة وفي كثير من قصائد المدح النبوي يصف الشاعر الناقة التي يقصد بها القبر الشريف من لدن بدء تربيتها إلى حين وصولها إلى باب السلام ومن سمع مثل هذا الشعر لم يسارع بتهمة معلقة طرفة أنها مصنوعة .

ونسأل الله التوفيق .

عبد الله الطيب

عضو المجمع من السودان